

أضواء البيان

@ 532 وأحلنا عليها مراراً . . .

تنبيه .

اعلم أنه يجب على كل إنسان أن ينظر في هذا البرهان الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة ، لأن [] جل وعلا وجه في كتابه صيغة أمر صريحة عامة في كل ما يصدق عليه مسمى الإنسان ، بالنظر في هذا البرهان العظيم المتضمن للامتنان ، لأعظم النعم على الخلق ، وللدلالة على عظم [] وقدرته على البعث وغيره ، وشدة حاجة خلقه إليه مع غناه عنهم ، وذلك قوله تعالى : { فَلَا يَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَّا طَعَامَهُ } { ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَنْبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَآئِقَ غُلَابًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعْمًا كُمْ } . والمعنى : انظر أيها الإنسان الضعيف إلى طعامك كالخبز الذي تأكله ولا غنى لك عنه ، من هو الذي خلق الماء الذي صار سبباً لإنباته هل يقدر أحد غير [] على خلق الماء ؟ أي إبرازه من أصل العدم إلى الوجود . ثم هب أن الماء خلق ، هل يقدر أحد غير [] أن ينزله على هذا الأسلوب الهائل العظيم الذي يسقى به الأرض من غير هدم ولا غرق ؟ ثم هب أن الماء نزل في الأرض من هو الذي يقدر على شق الأرض عن مسار الزرع ؟ ثم هب أن الزرع طلع ، فمن هو الذي يقدر على إخراج السنبل منه ؟ ثم هب أن السنبل خرج منه ، فمن هو الذي يقدر على إنبات الحب فيه وتنميته حتى يدرك صالحاً للأكل ؟ { انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذْ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ، والمعنى : انظروا إلى الثمر وقت طلوعه ضعيفاً لا يصلح للأكل ، وانظروا إلى ينعه ، أي انظروا إليه بعد أن صار يانعاً مدركاً صالحاً للأكل ، تعلموا أن الذي رباه ونماه حتى صار كما ترونه وقت ينعه قادر على كل شيء منعم عليكم عظيم الأنعام ، ولذا قال : { إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } ، فاللزام أن يتأمل الإنسان وينظر في طعامه ويتدبر قوله تعالى : { ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ رُضًا } أي عن النبات شقاً إلى آخر ما بيناه . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { لَوْ نَشَاءُ لَجْعَلَنَاهُ حُطَامًا } يعني لو نشاء تحطيم ذلك الزرع لجعلناه حطاماً ، أي فتاتاً وهشيماً ، ولكننا لم نفعل ذلك رحمة بكم ، ومفعول فعل المشيئة محذوف للاكتفاء عنه بجزء الشرط ، وتقديره كما ذكرنا ، وقوله : { فَطَلَّاتُمْ } تَفَكَّهُونَ .